من تراب الطريق (٣٤٧) الردة العقلية والحضارية ! (*)

من يراقب بإمعان ما يجرى بيننا فى بلدنا هذه الأيام ، لا يملك إلاَّ أن يستهول ما صارت إليه أحوالنا من تراجع مخيف دلت عليه أعراض وظواهر مرضية بدأت تشرئب وتتزايد من سنوات .. تحول الحوار إلى شجار ، وحلت الكلمات وربما طلقات الاغتيال ، محل الحجج والبراهين والآراء .. ضاق الأفق وضاقت معه الصدور ، وضمر الفكر ، وعلت نبرة الكلام الذى ضل هدفه وتاهت منه غايته .. لا يكاد أحدُ يبدى فكرا أو يطرح رأيا إلاَّ وتعاجله فرق الضرب واللكم والكاراتيه ، أو الرجم بالكفر ، أو قذائف السباب بأقذع الألفاظ .. من يراجع التراشقات والانفلاتات الدائرة الآن فى مصر ، يصدمه أنها آية ظاهرة على تراجع العقل وزحف الفراغة وعقم التفكير وتفشى لغة البلطجة .. شيوع هذا التراجع يؤدى إلى تعقيم العقل وتجميد الفكر وإغلاق كل منافذ التقدم والإصلاح !

والسؤال الذى يطرح نفسه بشدة هذه الأيام .. لماذا تجاوزت حملات البذاءة فى بعض الصحف ـ كل حدّ ؟! ولماذا لم يعد معظم الناس ينشدون

(*) المال ٢٧/ ١٠/ ٢٠٠٩

سوى صحافة الفضائح والإثارة ؟! وأين العقل الفردى والجمعى من تفشى وانتشار هذه الآفات والقذائف اللسانية ؟!

من ضيق الفكر وتراجع العقل وجموح التعصب ، أن تعجز عن رؤية ما يراه غيرك ، وأن لا تواجهه إلاَّ بالرفض وربما بالإدانة والشجب ، قبل أن تتيح لنفسك فرصة مناقشته والتأمل فيه !

ومن مظاهر تراجع العقل أن لا تُرى الأمور إلاَّ من ثُقب إبرة !. من هذا التراجع أن يحتقن المسلمون لتنصر واحد كان منهم ، وأن يحتقن الأقباط لإسلام واحد كان منهم .. مع أن العالم ملئ بمئات الملايين من المسلمين ، ومئات الملايين من المسيحيين ، ولن يزيد هؤلاء وأولاء بإقبال واحد ، ولن ينقصوا بإدبار آخر !!!

ومن مظاهر هذا التراجع العقلى أن يُحسب خطأ الفرد على أسرته أو قبيلته أو فئته أو طائفته.. مع أن الخطأ خطأ واحد .. لا ذنب ولا جريرة فيه على أسرته أو قبيلته أو فئته أو طائفته.. من أجل هذا تتعقد الأمور وتزداد وتربو العداوات !!

وفى الوقت الذى تنشغل فيه إسرائيل بهدم وتخريب المسجد الأقصى وتهويد القدس ، نتعارك نحن حول النقاب الذى يحجب وجه المرأة .. لأنه عورة .. مع أنه خلقة الله تعالى ، جعله سبحانه لحكمةٍ وكرامة !!.. ولا يسأل أحدٌ من المتشنجين نفسه لِمَ إذن أمر القرآن المجيد بغض البصر عن النظر للمرأة ؟!

من دلائل التراجع الفكرى والحضارى ، أنه بعد قرابة قرن من الزمان الذى تنادى فيه قاسم أمين وغيره من المتنورين ـ بتحرير المرأة من أغلال

القرون الماضية ـ نرتد ونعود إلى اعتبار المرأة عورة من قمة رأسها حتى أخمص قدميها .. حتى وجهها وكفيها ، وألا نرى سبيلا إلاّ إخفاء عورة الوجه بستار النقاب ، وحجب عورة الكفين بالقفاز !!

ومن الغريب اللافت أن يتعامى المجتمع عن زنى المحارم الذى أخذ يتفشى فى العشوائيات حيث تتلاحم وتتراكم الأجساد والأنفاس فى المزانق الضيقة ، بينما يشرئب فريق من الناس لنعت وجه المرأة بأنه «عورة» توجب أن يُسدل عليه نقاب ؟!

والغريب أن الذين يتنادون بحجب وجه حواء وراء نقاب ، لا يمانعون فى أن تُعلم وتتعلم ، وفى أن تنتخب وتُنتخب للمجالس النيابية والشعبية ، وفى أن تؤدى دورا فى المجتمع لم يعد بمستطاع أحد أن ينكره .. ولكن لا يكلفون خاطرهم الشريف ببيان كيف يمكن لحواء أن تنهض بهذا كله ووجهها «عورة» محجوبة بنقاب !

وفى الوقت الذى صار فيه العالم قرية صغيرة عبر الفضائيات ، ويستطيع المشاهد أن يطالع كل ما فيه وأن ينتقل من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال ، ومن الشرق إلى الغرب ، بمجرد ضغطه على زر مفتاح ـ إلاّ أننا لا نزال أسرى متجمدين عند الهامشيات والشكليات ، لا يجود علينا العقل إلاّ بأن وجه المرأة عورة يجب أن ينسدل عليه ستار النقاب !

وفى الوقت الذى راجع التيار الإسلامى فى تركيا نفسه ، وانتهى إلى حزب العدالة والتنمية الذى قبله الناس ولم يرفضوه ـ نرى التيار الإسلامى محلك سر فى مصر ، لا يزال المعتدلون متوقفين عن المراجعة ،

والمتطرفون يترددون فيها ، بينما لا تجد السلطة سبيلا للحوار إلاَّ القمع والاعتقال !

لا أدرى ماذا وراء بداية شيوع تعبير «مصر الفرعونية» و«المصريون الفراعنة» ، حتى بات يطلق على المنتخب المصرى لكرة القدم : «فريق الفراعنة».. هل هناك علة معلومة أو غاية مرجوة أو خطة مقصودة وراء إحلال «الفرعونية» محل «العربية» .. مع أننا نلعن الفرعون فى كل تلاوة وفى كل صلاة ؟!!

إلام ترتد كل هذه الظواهر المؤسفة التى زحفت علينا .. لقد صرنا على غير ما كنا عليه ، وتراجعنا وارتددنا بدلًا من أن نواصل التقدم والاستنارة .. هل هو فراغ المَعِين وضحالة الثقافة والمعرفة ؟! . هل مرده إلى ضيق الأفق وضمور الفكر وضيق الصدور وقلة الصبر ؟! .. أم أنه الجمود والتعصب وحالة الاستقطاب وحب الاستعراض والانتصار للذات ؟!

إن مصالح الوطن العليا قد صارت على المحك نتيجة حالة الاحتقان والهيجان ، والتراجع العقلى والردة الحضارية ، والتعصب والتطرف .. فهل يتقدم عقلاء الأمة ليتنادوا بوقفة نراجع فيه أنفسنا .. ما كنا عليه ، وما صرنا إليه ، وما ينبغى أن نرنو ونتطلع إليه لنعاود التقدم إلى حيث ينبغى أن نكون ؟!

*****